

مجلة كلية الكنعنة الإسلامية

عشر
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعية - محكمة تصدر سنوياً

1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

اخْتِتام النِّبوة
ظاهرة الشعراء الكُتّاب في لبديا
مالم يُذرع من المصطلحات النخوية
مبمل لتاريخ الكنيسة

سير الإسلام وسماحته

الدكتور أحمد عبد الرحيم السباج

الإسلام هو الدين الوحيد الذي احتوى بين دفتيه منهجاً متكاملًا، لديه القدرة الكاملة، والشاملة على إتيان النفوس، من أبوابها الطبيعية، والتغلغل فيها من طريق مؤثراتها الفطرية، التي لا تجد النفس السوية معها مناصاً إذا مستها إشراقات الحق والخير، من التسليم إليها، والاستجابة لها.

لقد كان الإسلام - ولا يزال - دين الفطرة النقية، والتشريع السامع الذي يتسم بالسهولة واليسر، والبعد عن التشدد والتعقيد، في كل مناحيه، ومقاصده ومراميه.

راعى الله في الإسلام ما تقتضيه النفوس، وما جبل عليه الخلق، فجعل تكاليفه غير زائدة على قدرتهم، بل إنه من أجل ما يحمله من عناصر البقاء والعموم، لجميع البشرية ترك الآصار والأغلال، التي ضربها على بني

إسرائيل، جزاء ظلمهم وعدوانهم، قال الله - سبحانه وتعالى - وفي ذلك ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (1).

وذلك اليسر والسهولة في أحكامه واضح، لكل من تتبّع الشريعة في أصولها وفروعها، وقد زخر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالنصوص التي تدل على ذلك وتؤيده قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلِيلًا أَيْكُمْ إِتْرَاهِيمُ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (2).

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (3).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (4).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (5).

فهذه الآيات - وغيرها كثير - تنطق بنفي الحرج في مسائل الدين كلها، وتدل بوضوح على أن الله أراد أن تكون مبنية على أساس من السعة والتيسير والسماحة (6).

(1) سورة الأعراف، الآية: 157.

(2) سورة الحج، الآية: 78.

(3) سورة المائدة، الآية: 6.

(4) سورة البقرة، الآية: 185.

(5) سورة النساء، الآية: 28.

(6) د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيع، صور من سماحة الإسلام ص 10 - ص 11 ط: دار المطبوعات الحديثة بجدة سنة 1406هـ / 1986م.

وإذا تصفحنا كتب السنة وجدناها تحمل وقائع كثيرة من أفعال النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»⁽⁷⁾.

وأخرج الإمام أحمد: أنه ﷺ قال: «إن خير دينكم أيسره»⁽⁸⁾ وأن الصحابة ﷺ سألوه عن أشياء تخرجوا منها، فقال لهم: «إن دين الله - عز وجل - في يسر ثلاثاً»⁽⁹⁾.

وكان في ذروة وصاياه ﷺ - لقواد الجند، وأمراء الولايات: أن يعملوا على أساس من اليسر ودفع الحرج، وتجنب التشديد، وكل ما كان من شأنه إعنات الناس، والتشديد عليهم⁽¹⁰⁾.

وروى أن النبي ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى الأشعري - حينما بعثهما إلى اليمن - : «يسروا ولا تمسروا، وبشروا ولا تنفروا»⁽¹¹⁾.

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا، فدرجوا في مسالك الكمال، وصعدوا في مراقي العلا، يشمل الصفاء كل نواحيهم، ويعممهم الحب والتفاهم في تلاقيهم، فقد وجدوا في كنف دينهم السمع حياة هادئة مستقرة، فسعدوا بظلالها الوارفة، ونعموا بأنوارها الهادية.

لقد وجدوا في هذا الدين ضالتهم المنشودة، وجدوا فيه منهاجاً باراً، حانياً، عطوفاً، يقدم لهم كل ما يطمئنهم ويثلج صدورهم، ويبعد عنهم كل ما يسوءهم ويحزنهم.

لقد شرع الله هذا الدين لعباده، فجعله سهلاً سمحاً واسعاً، ولم يجعله

(7) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر ج 1 ص 93.

(8) رواه أحمد في مسنده، ج 5 ص 32 ج 4 ص 338 ورواه الطبراني، في المعجم الصغير ج 2 ص 107، ط: الثانية، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة سنة 1388هـ / 1986م.

(9) رواه أحمد في مسنده ج 5 ص 69، من حديث عروة الفقيمي.

(10) د. عبد العزيز الربيع صور من سماحة الإسلام ص 11.

(11) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب العلم، باب ما كان النبي يتخولهم بالمرعظة كي لا ينفروا ج 1 ص 163 وفي كتاب الأدب، باب قول النبي - ﷺ - «يسروا ولا تمسروا» ج 20 ص 524.

ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ج 12 ص 42.

ضيقة حرجاً، لتتفتح النفس البشرية من خلال مناهجه، وتنمو وتزدهر، وقد أشربت حسب عقيدته وتعاليمه، واحترام مبادئه وآدابه، والالتزام بأخلاقه وسلوكياته، بعد أن رأت فيه الوجه الأصيل، للفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها، من السهولة ووضوح القصد، والبعد عن كل ما من شأنه تكليف الإنسان من أمره عسراً، ووضعه في دائرة الضيق والحرج، إذ يريد الله - تعالى - بنا اليسر، ولا يريد بنا العسر، الأمر الذي يبعث النفوس على الأمل، ويحفز الهمم للنشاط والعمل.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (12).

إنه على قدر الجهد يكون العمل، وعلى قدر الوسع والطاقة يكون التكليف، وعلى قدر العمل والإنتاج يكون الجزاء، فالله - سبحانه وتعالى - لطيف بعباده، ورحيم بمخلوقاته، لم يكلف البشر فوق طاقتهم، أو يفرض عليهم ما ليس في استطاعتهم، شفقة عليهم، ورأفة بهم، ورفقاً وإحساناً، وتفضلاً منه عليهم، كما أنه - سبحانه وتعالى - لا يحاسب العبد إلا بناءً على الواقع الفعلي، لما اقترفت يده أو تلفظ به لسانه، أو ما اكتسبته جوارحه عن حرية واختيار.

أما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس الأمارة بالسوء وهمساتها بالشرور والآثام، وما قد يعزم العبد عليه، دون أن ينفذ ما عزم عليه، فإن الله لا يحاسب الإنسان على مثل هذه الأشياء تكرماً منه، وشفقة على عباده من حيث إنه لم يكلفهم ما لا يطيقون ولم يؤاخذهم بما لا يعلمون، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى

(12) سورة البقرة، الآية: 286.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾

فأله - سبحانه وتعالى - لا يكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته، والقيام
به، ولذلك كان كل مكلف مجزياً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ويقول ابن كثير: إن الله - سبحانه وتعالى - لا يكلف أحداً فوق طاقته،
وهذا من لطفه - تعالى - بخلقه، ورأفته، وإحسانه إليهم^(١٤). فالله لا يكلف
نفساً إلا وسعها ولا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه^(١٥).

فالإسلام - كما ترى - دين السماحة واليسر، جاء بالحنيفية السمحة،
التي كانت منهجاً لإبراهيم - عليه السلام - وسائر الأنبياء ﴿وَيُنَا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا﴾^(١٦).

لقد خلق الله الإنسان وعلم ضعفه، ومدى طاقته واحتماله، فشرع له
بالقدر الميسر الذي يستطيعه، ولا يشق عليه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ﴾^(١٧).

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(١٨).

يقول الفخر الرازي: «هذا عام في كل أحكام الشرع، وفي جميع ما
يسره لنا وسهله علينا، إحساناً منه إلينا، ولم يثقل التكليف، كما ثقل على بني
إسرائيل»^(١٩).

وإرادة التخفيف عن المسلمين - فيما أخذهم الله به من أحكام: هي من
حكمة الله ورحمته، ليس لأحد أن ينازع الله في حكمته، أو يمسك عن عباده

(13) سورة البقرة، الآية: 286.

(14) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 1 ص 508.

(15) القاسمي، محاسن التأويل ج 3 ص 734.

(16) سورة الأنعام، الآية: 161.

(17) سورة الملك، الآية: 14.

(18) سورة النساء، الآية: 28.

(19) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج 5 ص 70.

رحمته، لأنه لا متعلق لأحد بهذه الإرادة ولا مطلوب فيها لأحد، إنها خالصة من الله بعباده⁽²⁰⁾.

ولا يفوت الباحث: أن يعرف أن الله - سبحانه وتعالى - قد هيا نبيه محمداً ﷺ وأعدّه على نحو خاص، يتواكب دائماً مع روح الإسلام ومنهاجه، في اليسر، والسماحة، والتخفيف، ورفع الحرج، فكان خير نبي بعث بخير رسالة، لخير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَسْقَى﴾ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) (21) التي يسهل على النفوس قبولها، ولا يصعب على العقول فهمها، وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل، وليس الفعل هو الميسر للإنسان، من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة والإرادة النافذة لإيجاده، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق، التي توصل إليه⁽²²⁾.

فالله - سبحانه وتعالى - لم يجعل الشريعة التي دعا إليها الرسول ﷺ إلا لتكون مصدر إشعاع، ومنار هداية، وموئل رحمة منه - سبحانه وتعالى - إلى عباده، تشع من جوانبها السماحة واليسر، قال تعالى: ﴿طه﴾ (١) مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا نَذْكِرُهُ لِمَنْ يَخْشَى (٣) (23).

فالإسلام دين لا تكلف فيه ولا إعنات، ولا تنطع، ولا تشدد، ولقد نعى النبي ﷺ على المتنطعين، والمترمتين، ووضح أن عبادة الله - سبحانه وتعالى - تقوم على الالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، وطاعته بالقدر الميسور الملائم لطبيعة البشر، فلا تجاوز أو تقصير في حق الفرد، وحقوق الآخرين عليه.

عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من

(20) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني للقرآن ج 5 ص 765، ط: دار الفكر العربي، بمصر.

(21) سورة الأعلى، الآيات: 6 - 8.

(22) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج 7 ص 109.

(23) سورة طه، الآيات: 1 - 3.

الدلجة» (24).

وعن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً (25).

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم: وأما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (26).

لقد نهى الإسلام عن الغلو في الدين، من غير مراعاة لحق النفس، وحقوق الآخرين قال رسول الله ﷺ: «لا تغلوا في دينكم، فإنما هلك من كان قبلكم بغلوهم في دينهم» (27).

وقال ﷺ: «الإسلام متين، فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

ومن سماحة الإسلام ويسره: إياحة طعام أهل الكتاب (28) ومشروعية الرفق بأهل الذمة (29) والرحمة العامة بالناس كلهم، قال رسول الله ﷺ:

(24) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 30 ص 124.

(25) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر ج 1 ص 93.

(26) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ج 16 ص 220.

(27) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ج 9 ص 104.

(28) رواه أحمد في مسنده ج 1 ص 215، 347.

(29) ابن قدامة، المغني ج 9 ص 390 تحقيق محمود عبد الوهاب فايد، وعبد القادر أحمد عطا، ط: مكتبة القاهرة سنة 1389هـ / 1969م.

«الراحمون برحمتهم الرحمن، وارحموا من في الأرض برحمتكم من في السماء»⁽³⁰⁾.

وقال: «من لا يرحم لا يرحم»⁽³¹⁾.

لقد جاء الإسلام حكيماً في توجيهاته، شريفاً في وسائله ومقاصده، نبيلاً في أهدافه وغاياته، كريماً عندما قدر ضعف الإنسان، وراعى ظروفه، لأنه أدرك بالمصلحة له من المفسد، فتعامل معه برفق وحنان، كما يتعامل الطبيب الماهر مع مريضه على النحو الذي يكفل له السلامة، ويضمن له الصحة والعافية.

والباحث في صفحات يسر الإسلام وسماحته، يجد جوانب متعددة،
ورياً متجدداً وزاداً لا ينفد.

فالإسلام على يسر في كافة أحوال المسلمين وسائر شؤونهم، ليظفروا بمرضاة الله، ولتزدهر بهم شجرة الحياة، لأن كل ما فوق الوسع والطاقة، لا يكلف الله به عباده، حتى لا يتطرق إليهم الملل، ولا يشيع فيهم السأم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (32).

لقد راعى الله ظروف الإنسان العارضة، وقدر أحواله الطارئة التي تخرج عن إرادته، فنظر إلى ذلك نظرة اليسر والتسامح والتخفيف، رفعاً للإثم، ودفعاً للحرَج، فأباح التيمم لعباده عند المرض، أو السفر الذي يمنع من استعمال الماء، أو عند فقدانه توسعة منه على عباده، ورحمة بهم، وذلك بالصعيد الطيب، فالله - تعالى - غني عن عباده ولا يشرع لهم إلا ما فيه الخير والنفع لهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ

(30) د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ص 9 - 30، ط: مكتبة وهبه بالقاهرة سنة 1397هـ/ 1977م.

(31) رواه أحمد في مسنده، ج 2 ص 160.

(32) سورة البقرة، الآية: 286.

الْفَاطِلِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٣﴾

فالإسلام دين السماحة، يريد للمتسبين إليه اليسر، ولا يريد بهم العسر
فلقد رخص الشارع للمريض الذي يضره استعمال الماء، أو المسافر الذي ليس
لديه من الماء ما يكفيه لطهارته، أو المنقطع في مكان ليس به ماء: أن يتيمم
صعيداً طيباً، تيسيراً من الله ورحمة بعباده. فالله - سبحانه وتعالى - ما يريد
ليجعل على المسلمين فيما شرعه حرجاً ما، ولا أدنى ضيق، وأقل مشقة (34).

فلهذا سهل الله على المسلمين، ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند
المرض وعند فقد الماء، توسعة عليهم، ورحمة بهم (35).

لقد أراد الله لعباده اليسر والتخفيف، فأمرهم بالصلاة والقدر الذي يتيسر
لهم، وتحمله قواهم البدنية، حتى لا يسأم الناس، فيملوا الطاعة، والناس
منهم المريض، والمسافر والمجاهد، الذي لا يستطيع ذلك، فخفف الله عن
الجميع تفضلاً منه وتيسيراً على عباده.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثُ
وَطَائِفَةٍ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا
مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَبَكُونَ مِنْكُمْ رِجْئاً وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا
وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

فالله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تاماً، فإذا زدتم على

(33) سورة المائدة، الآية: 6.

(34) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الأدب، باب رحمة الولي وتقبيله ومعانفته
ج 10 ص 426.

(35) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 6 ص 64.

(36) سورة الزمل، الآية: 20.

المفروض ثقل ذلك عليكم، وكلفتم ما ليس بفرض، وإن نقصتم شق هذا عليكم، فتأب عليكم، ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ومن عسر إلى يسر، وطلب منكم أن تصلوا ما تيسر بالليل⁽³⁷⁾.

فلا تتجاوزوا ما قدره لكم رحمة بأنفسكم⁽³⁸⁾ ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾⁽³⁹⁾.

فالسفر يفرض على صاحبه أن يسير في برنامج غير برنامجه الذي استمرأ سلوكه في حال الإقامة، كما أنه يفرض عليه تجشم المصاعب من الإدلاج، والسهير، والتعرض للبرد، أو الحر، أو إغواز الماء، وخوف الانقطاع، فهو حيثئذ ليس بمطمئن البال، ولا يستريح الجسم، ومن أجل ذلك كان السفر مظنة للمشقة والعناء، فكان جديراً بأن يحظى بنوع من اليسر والسهولة في التكليف، كي يستطيع المسافر القيام بها، دون إدخال له في الحرج⁽⁴⁰⁾ ولهذا ليس على المسلمين جناح أن يخففوا من كمية الصلاة، بأن تجعل الرباعية ثنائية⁽⁴¹⁾.

ومن يسر الإسلام وسماحته في الصلاة أنه قد يطرأ على الإنسان ما يجعله لا يستطيع أداء الصلاة المكتوبة قائماً، كما هو الحال في الظروف العادية المألوفة، كأن يكون في حالة خوف من عدو متربص، أو وحش مترقب، أنه في هذه الحالة يصلي كيفما تيسر له، راجلاً أو راكباً، حيثما توجه ولا تسقط بحال. هذا إذا كان منفرداً، أما إذا كانت جماعة: فلها أحكام مبسطة في كتب الفقه.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَلِذَا أَمْنُكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ

(37) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 3 ص 55.

(38) مصطفى المراغي، تفسير القرآن، ج 29، ص 120.

(39) سورة النساء، الآية: 101.

(40) القاسمي، محاسن التأويل ج 16 ص 5963.

(41) د. عبد العزيز الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص 50.

كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾.

يقول القرطبي: فكما أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة بحال القنوت، وهو: الوقار، والسكينة، وهدوء الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، ذكر حالة الخوف الطارئة أحياناً ويبين أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد بحال، ورخص لعباده في الصلاة رجالاً على الأقدام، وركبانياً على الخيل والإبل ونحوهما، إيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه. هذا قول العلماء وهذه هي صلاة الفذ، الذي قد ضايقه الخوف على نفسه، من سبع يطلبه أو من عدو يتبعه، أو سبيل يحمله، وبالجمل فكل أم يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمنته هذه الآية⁽⁴²⁾.

فإن خاف المسلمون أي ضرر من القيام قانتين لله، صلوا كيفما تيسر لهم راجلين أو راكبين، وفي هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة، وبيان أنها لا تسقط بحال، إلا حال الخوف على النفس أو المال أو العرض مظنة العذر في تركها، كما يكون السفر عذراً في ترك الصيام، والسبب في عدم سقوطها على المكلف في كل حال، إنها عمل مذكر بسلطان الله - سبحانه وتعالى - المستولي علينا، وعلى العالم كله، وما الأعمال الظاهرة إلا مساعدة على العمل القلبي المقصود بالذات، إذ من شأن الإنسان أنه إذا أراد عملاً قلبياً، يحتاج إلى جمع الفكر، وحضور القلب أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل.

فإذا تعذر عليه بعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية، وهي: الإقبال على الله، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر المستطاع، ويكون ذلك حين قتال العدو، أو الفرار من أسد، فيصلّي المكلف راجلاً أو راكباً إن حانت الصلاة، لا يمنعه من ذلك الكر والفر، والطعن والضرب، ويأتي من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطيع من ركوع وسجود، ولا يلتزم التوجه للقبلة⁽⁴⁴⁾.

(42) سورة البقرة، الآية: 239.

(43) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 2 ص 347.

(44) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج 1 ص 1031.

فالصلاة لما كانت خير ذكر، قصد أمر الله بها المؤمن، وكلفه بأدائها على أي وجه استطاعه، والمؤمن من يجب عليه أن يذكر الله في كل أحيائه، كما كان يفعل النبي ﷺ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب، وبالتفكير في ملكوته وآلائه يرسخ الإيمان، والصلاة من الذكر، فإن صلى الإنسان وكان مريضاً يشق عليه القيام، صلى قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، يومئذ إيماء، فما جعل الله على المسلمين في الدين من حرج.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ رَسَّكُورًا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (45) وإذا كانت الآية في الصلاة ففقهها: إن الإنسان يصلي قائماً، فإذا لم يستطع فقاعداً فإن لم يستطع فعلى جنبه (46).

ما أعظم رحمة الله بعباده، وما أجلها من رحمة، وما أيسر تشريعاته التي شملت الدين كله، فقد جمع الله في تشريعاته السمحة بين خيري الدنيا والآخرة، فأمر عباده بالضرب في الأرض، إما سعيًا على العيش، وإما جهاداً لنشر دينه وإعلاء كلمته، مع تيسير العبادة لهم في السفر صلاة وصوماً حسب حالهم وطاقاتهم.

والنبي ﷺ كان مثالاً يحتذي لأمة في عدم التضييق والتشديد، فلقد كانت صلاته وخطبه ومواعظه، لا بالقصيرة المخلة، ولا بالطريقة المملة، وكذلك تعلم منه، واقتدى به أتباعه ﷺ عن عمران بن الحصين - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» (47).

(45) سورة آل عمران، الآية: 191.

(46) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج 2 ص 1553.

(47) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم تطق قاعداً فعلى جنب ج 2 ص 587.

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صل بصلاة أضعف القوم»⁽⁴⁸⁾.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «من هذه؟» قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: «مه عليكم بما تطيقون... فوالله لا يمل»⁽⁴⁹⁾ حتى تملوا»⁽⁵⁰⁾.

فالإسلام - كما ترى -: هو المنبع الصافي، الذي يستقي منه المسلم ما يصلح حاله في الدنيا والآخرة، مع التيسير عليه، حتى يتمكن من أداء ما كلف به على خير وجه.

لقد راعى الإسلام السهولة واليسر، والبعد عن الغلو، والتشدد، فراعى ظروف كل إنسان في تشريعاته الرحيمة، قوة وضعفاً، صحة ومرضاً، فصار بلا ريب دين الفطرة، بكل ما تتسع له هذه الكلمة من مضمون، ومدلول، فعندما شرع الصوم راعى ظروف المسافر والمريض، الذي يشق عليه الصوم، والمرأة إذا كانت حاملاً أم مرضعاً، والشيخ الهرم، والذين يقومون بأعمال شاقة، فخفف عنهم، وجعل لهم من الأحكام الميسرة السمحة، ما يجعلهم يشعرون بالطمأنينة والرضا، فيقبلون على طاعة الله بقلوب راضية ونفوس مطمئنة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

(48) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري - كتاب الآذان، باب من شكى أمامه إذا طول ج 2 ص 200.

(49) (لا يمل) أي يعطي الثواب، ولا يعجز، ولا يعرض عن العبد، ولا يقطع عنه الإقبال عليه بالرحمة والإحسان. (حتى تملوا) أي تقصروا في طاعة الله، وتعرضوا عن عبادته بعد الدخول فيها، لملاة النفس، ابن حجر، فتح الباري كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه ج 1 ص 102.

(50) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله ج 1 ص 42.

(51) سورة البقرة، الآيتان: 183 - 184.

فالمريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام آخر⁽⁵²⁾.

وصوم رمضان في أصل مشروعيته رحمة وتيسير، وفضل وإحسان، فحينما ننظر إلى هذه العبادة في مراحلها المختلفة، وجوانبها المتعددة، نجد اليسر والسماحة صفة بارزة فيها، فالأيام التي يجب صيامها قليلة جداً، بالنسبة لأيام السنة، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾⁽⁵³⁾.

إن الإسلام يتسم باليسر والسماحة، مما دفع الكثير من الناس إلى الدخول في هذا الدين، الذي جاء بالتكليف، التي تتجاوز معها الفطرة، إذ ليس في العقائد التي اعتنقتها البشرية على مدى تاريخها الطويل، كعقيدة الإسلام السمحة، التي انتظمت شؤون الخلق ديناً ودنياً، على أحسن نظام، وأكمل منهج، لقد راعى الإسلام في جميع تشريعاته الضعفاء والمرضى وأصحاب الأعذار، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، بل شرع ما يناسبهم من الرخصة والتيسير والتخفيف، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽⁵⁴⁾.

فالله - سبحانه وتعالى - أوجب الصوم على سبيل السهولة واليسر، إذ أنه قد أوجبه في مدة قليلة من السنة، ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض، ولا على المسافر، وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة⁽⁵⁵⁾.

وجاء في تفسير المنار، في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا

(52) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 1 ص 206.

(53) سورة البقرة، الآية: 184، وانظر د. عبد العزيز الربيعة، صور من سماحة الإسلام ص 62 - 63.

(54) سورة البقرة، الآية: 185.

(55) الفخر الرازي، التفسير الكبير ج 3 ص 98.

يُرِيدُ بِكُمْ الْفُسْرَ ﴿٥٦﴾ . . هذا تعليل لما قبله، أي يريد فيما شرعه من هذه الرخصة في الصيام وسائر ما يشرعه لكم من الأحكام أن يكون دينكم يسراً تاماً، لا عسر فيه، وفي هذا التعبير ضرب من التحريض والترغيب في إتيان الرخصة، ولا غرو، فالله يحب أن تؤتى رخصه، كما تؤتى عزائمه، وذلك بأن الله لا يريد إعنات الناس بأحكامه، وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم ومنفعتهم⁽⁵⁷⁾.

لقد بنى الإسلام تشريعاته كلها على اليسر والسماحة والرحمة، ولم يقصد بتكاليفه - على وجه عام - عنتاً ولا إرهاقاً، ولم يأمر بشيء فوق طاقة البشر، وإنما جعل لهم رخصاً، إذا عجزوا عن القيام بالتكاليف.

وإذا كانت آية الله قد أوضحت أن الغرض من التشريع الإسلامي هو التيسير فإن سنة رسول الله ﷺ: «قد واكبت دعوة القرآن الكريم»، مما دفع الناس إلى النظر في الإسلام، والبحث عنه، والدخول فيه.

روى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال: خطب رسول الله ﷺ - فقال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ألا أن الله فرض فرائض وسنناً، وحد حدوداً وأحل حلالاً، وحرم حراماً، وشرع الدين، فجعله سهلاً، سمحاً، واسعاً، ولم يجعله ضيقاً»⁽⁵⁸⁾.

وكل ما سبق من غير شك فرائض حتمية، لها إيجاباتها الحيوية، والمهمة، والواجبة، التي لا سبيل إلى غيرها، مما دعا الناس إلى التفكير في الإسلام، والدخول في عنته.

على أن دين الإسلام رفق كله، لا حرج فيه، ولا عنت، ولا إصر، ولا مشقة ولا تزم، ولا جمود، وإنما يسر وتخفيف، وبر ورحمة، واستصحاب لمصلحة الخلق، واعتبار لمعاذيرهم، ورعاية لأحوالهم، في استيعاب

(56) سورة البقرة، الآية: 185.

(57) محمد رشيد رضا، تفسير المنارج 2 ص 132.

(58) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج 11 ص 213.

وشمول، وليس على المسلم الحق من شيء بعد بذل طاقته، وأداء وسعه، ولا تكليف له مطلقاً، ولا التزام فوق هذا الوسع، وهذه الطاقة.

وهذا في ذاته من خير ما يوحى بمرونة الإسلام، وفطريته، ويسره وسماحته وإنسانيته، وعدله وقسطاسه، وقصده.

قال تعالى: ﴿طه﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢٩﴾ (59).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (60).

يقول ابن كثير: «يريد الله أن يخفف عنكم في شرائعه، وأوامره، ونواهيه وما يقدره لكم» (61).

قال الإمام أحمد بسنده إلى عروة، قال: كنا ننظر النبي ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا خرج في كذا... فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله في يسر، ثلاثاً يقولها».

فالإسلام يفرض على المسلم - وهو يمارس شعائره - ألا يتجاوز وسطيته، فيشق على نفسه، ويكلفها فوق طاقتها، إذ أن هذا الدين متين واسع الأطراف.

وقد يؤتى المتمزمت المتشدد من قبل نفسه، فتعجز عن عونه ومساعدته، وتنقطع به وسط الطريق على صورة قد لا تتفق ودين الله - عز وجل - قال ﷺ -: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» (62).

وإن الباحث ليقف على سيرة الرسول ﷺ - الأسوة الحسنة، فيجدها في سلوكه، وعاداته، وعباداته، ومعاملاته، إذ كان اليسر والتيسير والسماحة

(59) سورة طه، الآيتان: 1 - 3.

(60) سورة النساء، الآية: 28.

(61) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 2 ص 233.

(62) رواه البخاري، في التاريخ الكبير، ج 1، ق 1، ص 103، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

دأبه، وديدنه، الذي يلتزم به، ويوصي به أمته وأصحابه ويحذّرهم من أن يتجاوزوه، ويبين لهم أن خير دينهم أيسره، وأن يكون التيسير والتبشير وتسكين النفوس، وطمأننتها، وتهذئة خواطرها، وعدم فتنها وإفزازها وإقلاقها، هدفاً أصيلاً من أهدافها، التي تدعو إلى انتشار الإسلام.

وإذا كان - كما عرفنا - أن الإسلام خير كله، وسر كله، وأن خير الدين أيسره، فإن خير الحياة أيضاً - أيسرها وأقربها إلى الفطرة، وإذا كان الله - تعالى - قد حرم على الناس أشياء، فقد حرمها لخبثها، بينما أحل أكل الطيبات.

فلا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه، ويجنح بها إلى التضيق، والحرَج والعنت، والمشقة، ويمنعها من المباح، (يجس عنها الطيبات التي أحل الله).

إن نفس الإنسان مطيته، إذا أحسن استخدامها، وأخذها باليسر، وعدم إغنائها والمشقة عليها، سلمت وبقيت له تؤدي مهامها، المنوطة بها، والغايات المتوخاة منها.

ما أجلّ الإسلام وما أعظمه من دين، وهو يوجه الدعاة والمصلحين، أن يحتكموا في عملهم، ومهمتهم إلى أدب الدعوة ومنهجها من الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، وأن يشكل الرفق والهدوء واللين، إطاراً يدور هذا المنهج الرباني في فلكه، ويلتزم به.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽⁶³⁾.

فهذه الآية نزلت بمكة المكرمة، في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة⁽⁶⁴⁾.

(63) سورة النحل، الآية: 125.

(64) الجامع لأحكام القرآن ج 4 ص 3816.

فألله سبحانه وتعالى - كما ترى، يأمر نبيه الكريم - ﷺ - بأن تكون دعوته قائمة على المنهج، الذي يمثل الكمال كله، في غس المعارف وتربية النفوس، ومن الدعوة بالحكمة: مراعاة مقتضى الحال، ومخاطبة كل قوم بما يعرفون، وأخذهم بالرفق، والتيسير، والسماحة، والتلطف، واختيار الوقت المناسب، للموعظة التي يراد وعظهم بها، حتى تتقبلها النفوس، وتنتفع بما فيها من خير... إن الرسول - ﷺ - طبيب يحمل الدواء إلى العقول والقلوب والأرواح. ومن هنا كانت مهمته عسيرة شاقة، يحتاج معها إلى بصيرة نافذة، تندمس إلى خفايا النفس الإنسانية، وتضع يدها على موضع الداء، ثم تختار من الدواء ما يشفي العلة، ويذهب الداء⁽⁶⁵⁾.

وإذا كان منهج الدعوة ليس إلا من صنيع الحق - تبارك وتعالى - ومن تنزيله فلقد كان الوحي يوجه الرسول - ﷺ - إلى أحكم آدابه، وأمثل أساليبه مع المدعويين، وذلك بأن يفتحوا لهذا الدين قلوبهم، ويحيلوا فيه عقولهم، ويستلهموها صواب الفكر، ورشاد الموقف، وحيدة النفس، في روية وأناة، من غير انغلاق، ولا تحجر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وُقُرْدَىٰ ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا يَصَاحِبِكُمْ مِّنْ جُنَّةٍ ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾⁽⁶⁶⁾.

وإنما طلب منهم التفكير، وهم متفرقون اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، لأن في الازدحام تهوئش خاطر، والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام، وقلة الإنصاف⁽⁶⁷⁾.

والآية الكريمة تكشف عن أسلوب الدعوة الإسلامية، القائم على مواجهة العقل ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، وإعطائه حقه في طلب الدليل المقنع، والبرهان الواضح ثم الاعتراف له بما يقتضي به بعد النظر السليم، المجرد من الهوى، المبرأ من التحدي والعناد.

(65) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني، ج 14 ص 398.

(66) سورة سبأ، الآية 46.

(67) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 32 ص 96.

فهذه رسالة الإسلام في الإنسانية، إنها تريد أولاً وقبل كل شيء: أن تحرر العقل من العادات الفاسدة والمعتقدات الباطلة، التي استولت عليه، وشلت إرادة التفكير فيه، فإذا تحرر العقل من هذه الآفات، وتخلص من القيود، فقد كسب نصف المعركة في صراعه مع الباطل، ثم كان عليه بعد هذا: أن يكسب النصف الآخر، حتى يتخلص من الضلال ويخرج من عالم الظلام على عالم الهدى والنور وهو أن يدير عقله على هذا الوجود، وأن ينظر فيه بعقله المتحرر، فإنه إن فعل، فلا بد إن يهتدي إلى الله، ويتعرف إليه، ويؤمن به⁽⁶⁸⁾.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾⁽⁶⁹⁾.

والمعنى - كما يقول الألوسي -: ولا تجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتي هي أحسن، أي بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب الكظم، والمشغبة بالنصح، والتسرع بالأناسة⁽⁷⁰⁾ فلا تجادلوا من أراد الاستبصار في الدين، إلا باللين والرفق⁽⁷¹⁾.

ولقد كان رسول الله - ﷺ - أحرص الناس على تبليغ الإسلام وأحناهم على تبليغ الدعوة، يبذل قصارى جهده في الدعوة إلى الله، ونشر دينه في الآفاق، رغبة في هدايتهم وإيمانهم، وكان يتوسل إلى ذلك بشتى صنوف القول، الذي يتفجر بالرفق، ويفيض باللين، ويشع بالحرص ويتألق بالرغبة الأكيدة في هدايتهم.

فالإسلام دين اليسر والسماحة، لا يمكن أن تلمس معه حرجاً، أو مشقة في أي جانب من جوانبه، عقيدة وشريعة، وعبادات، ومعاملات، قال تعالى:

(68) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآن للقرآن، ج 21 ص 838.

(69) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(70) الألوسي، روح المعاني، ج 6 ص 416، ط: دار الفكر العربي ببيروت مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 21 ص 5.

(71) مصطفى المراغي، تفسير القرآن ج 21 ص 5.

﴿فَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقِ شَعْنَهُ فَإِنِّي وَأَزْوَاجُهُ مُمْلِكُونَ﴾ (72).

فاتقوا الله في حدود ما تحمل أنفسكم، وما تتسع طاقتكم له، لأن هذا الدين سهل سمح، لا ينتفع به، إلا إذا أخذ سمحاً سهلاً، تقبله النفوس، وتنشرح له الصدور، شأنه في هذا شأن الطعام، لا يفيد منه الجسم، إلا إذا طابت له النفس واشتهته، واستساغت طعمه، واستطابت مضغه وبلعه (73).

فالإسلام دين واقع، ودين رحمة، وعدل وإحسان وتيسير وسماحة، لا يرى إلا أنهم بشر تتحكم فيهم نوازع وعواطف، وتعرض لهم عوارض الضعف ويلحقهم ما يلحق الكائن الحي.

فقوله تعالى: ﴿فَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ هو الميزان الذي يقيم عليه المؤمن أمر دينه كله، وأن يتقي هذه الفتن التي تهب عليه من كل جهة يتقيها بقدر ما يملك من قوة وما يتحمل من جهد، لأن كل نفس لها طاقة من الاحتمال، ولها قدر من القوة، وأنه على طاقتها وقوتها تحاسب، فتجزى بما كسبت، وعلى ما اكتسبت (74).

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما خير رسول الله - ﷺ - بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله - ﷺ - إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها» (75).

يقول ابن حجر شرح الحديث: فيه الحث على ترك الأخذ بالشيء المعسر والاقتناع بالميسر، وترك الإلحاح فيما لا يضطر إليه، ويؤخذ من ذلك النذب إلى الأخذ بالرخص ما لم يظهر الخطأ (76).

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه، القدوة في التوجيه والتربية، على

(72) سورة التغابن، الآية: 16.

(73) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن ج 17 ص 1105.

(74) المصدر السابق، ج 28 ص 992.

(75) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي - ﷺ - ج 6 ص 566.

(76) ابن حجر، فتح الباري، ج 6 ص 567.

القصد والتيسير، والتوسط، والاعتدال، فما أعرض عن أمر إلا لحكمة، تتمثل في رغبته في أن يرفق ويسر على أمته في كل أمورهم.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «دعوني ما تركتكم، فإن ما أهلك من كان قبلكم سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وما أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»⁽⁷⁷⁾.

قال ابن حجر: قال النووي: هذا من جوامع الكلم، وقواعد الإسلام، ويدخل فيه كثير من الأحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن أو شرط، فيأتي بالمقدور، وكذلك الوضوء، وستر العورة، وحفظ بعض الفاتحة، وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل.

وكان - ﷺ - كثيراً ما يركز على أن خير الطاعة، وأكثرها قبولاً، ما كانت يسيرة، سهلة، سمحة، لا حرج فيها، ولا مشقة، ولا تزلزل، وأن القصد والتوسط ينبغي أن يكون هدف المسلم، وغايته. قال رسول الله - ﷺ -: «إن خير دينكم أيسره».

وبعد هذا الذي عرضنا له في إيجاز: نجد أن مجالات السماحة واليسر في الإسلام تتصل بكل أمورنا، وفي جميع ما يتصل بنا: في الدين، والدعوة، والعادة والعبادة، والحكم والعمل، والنفس، والأسرة، والمجتمع، والسلم، والحرب، وغير ذلك مما له بنا اتصال.

حقاً إن الإسلام دين السماحة واليسر، لا يشق على الناس، ولا يكلفهم من أمرهم عسراً، في مطعمهم ومشربهم، وعباداتهم، وسائر أساليب حياتهم.. إنه - دائماً - يضيف على الداخلين فيه هالة، قوامها النبل، والسمو والترفع، والعطاء، والتسامح، واليسر والرحمة.. وأن تكون نفوسهم في الذرا، وأيديهم في العليا يوثقون عراهم بمجتمعهم، وينقلون على متون سلوكهم وواقعيتهم موارد دينهم، وتبعات تكاليفهم، ومقاليد ما بين أيديهم من أمانة الحق، إلى من خلفهم حتى تظل كلمة الله موصولة في البشر.

(77) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ

ج 13 ص 251.